القسم الثاني

حل الأزمة في إصلاح مناهج الفكر وإسلامية المعرفة

obeikandl.com

obeikandl.com

خطاب إصلاح مناهج الفكر وإسلامية المعرفة

1- صمود خطاب إصلاح مناهج الفكر وإسلامية المعرفة

إن عدم الاهتمام الكافي بقضية مناهج الفكر وإسلامية المعرفة، يجد أسبابه في محاربة أيديولوجيات محتكرة للفكر؛ لخطابه ودعوته. ولكن تمشياً مع سنة التدافع الربانية، وكنتيجة لسنة دمغ الحق للباطل، صمد خطاب إصلاح مناهج الفكر وإسلامية المعرفة في وجه كثير من التيارات الفكرية والثقافية التي أنكرته أو حاربته، أو تغافلت عن وجوده، مستعيناً في ذلك بجهود الفئة الفاعلة من هذه الأمة التي فهمت محتواه، واستوعبت مضمونه، وتجاوبت مع ندائه.

فإلى عهد قريب، كان الخطاب المتعلق بإصلاح مناهج الفكر الإسلامي يقابل باستنكار شديد، يصل أحياناً إلى الاستهجان والاستهانة[1]، أو يعامل بغفلة تامة تتناسى وجوده، رغبة في إدخاله دهاليز التآكل والنسيان، إما لجهل بمحتواه، أو ضعف عن إدراك مضمونه، أو عمى عن أهدافه وغاياته، أو تجاهل لأثره وفعله، أو تربص بأصواته ومنابره، أو مكر به بالمستجيبين له.

(1) يكفئ القارئ لمعرفة هذا الرأي الرجوع لمقال للدكتور عبد العظيم أنيس بعنوان: «هل يمكن أسلمة العلوم؟»، نشر ضمن عدد خاص من مجلة «**قضايا فكرية**» المصرية سنة 1990، بعنوان «الإسلام السياسي»، وأعيد نشره ككتاب مستقل في طبعة ثانية بالمغرب في يناير 1991، ص 180-183، ومقالة د. زكي نجيب محمود - عفا الله عنه - «لك الله يا علوم الإنسان» نشرت في **الأهرام** عام 1987 وغيرها.

وكان كثير من جمهور المخاطبين الذين لم يستوعبوا مضامينه وفحواه يعتبرون الحديث عن الإصلاح الفكري حديث المترفين والمتقاعسين عن أنواع الكفاح المهمة، كالكفاح السياسي والجهادي ونحوهما. ولكن الأزمات المتلاحقة بفكر الأمة وثقافتها، والإصابات المتكررة لمسارها الحضاري، والإخفاقات المستمرة لمخططاتها التنموية، جعلت العقل المسلم مهيأ لطرح واستقبال تساؤلات قد تصل أحياناً إلى درجة الاعتراض أو المعارضة، أو الرفض للواقع الحالي بشكل مطلق، والمراجعة الشاملة لكل أطروحاته وخطاباته، بحيث أدرك كل سليم العقل أن حصيلة النضال الدائم لأمتنا، وتضحيات ملايين الشهداء، واستشهاد آلاف الدعاة، لم تعد على الأمة بمعظم ما كانت تصبو وتسعى إليه، ولم تؤد إلى تسديد مسار الأمة الحضاري ومنع استفحال الأزمة على الصعيد الفكري.

وإذا كان خطاب إصلاح مناهج الفكر، وإدراك دوره في عملية الإصلاح والتغيير، يقابل موضوعه باستنكار إلى وقت قريب، فإن خطاب إسلامية المعرفة كان ولا يزال يقابل بإنكار شديد، لا يكاد يصل إلى المخاطبين من خلال محاضرة أو مقالة، إلا وترتفع عشرات الأصوات لتعترض على دمج المعرفة والإسلامية.

فالمعرفة في نظر هذا الصنف من المخاطبين واحدة مهما كان مصدرها، وهي موروث إنساني مشترك يحمل صفة العالمية والتغير والتطور، ويعتبر ملكاً للبشرية جميعها بمختلف مللها ونحلها. والعلوم -حسب وَهْم هؤلاء- لا تخرج في حقيقتها عن كونها جهوداً إنسانية تجريبية، وخبرات أفراد ومجتمعات في جوانب الحياة المختلفة، تقوم على مناهج علمية محددة ثابتة، لا يؤثر فيها دين العالم ولا مذهبه، ولا تتأثر بأي شكل من الأشكال بذلك. ولطالما صاحب استنكار هؤلاء المخاطبين لإسلامية المعرفة تساؤل مريب عن الغاية من الزج بالإسلام في هذه العلوم وهو دين مجرد، يحدد علاقة الفرد بربه، ويزكي سلوك الإنسان.

وقد غاب عنهم أن ما يحول دونهم والإدراك المطلوب، والمغزى المنشود

من إسلامية المعرفة هو العجز عن التفريق بين العلم من جهة، وبين منطلقاته وهدفه وقيمه وحكمته من جهة أخرى، بفعل الوهم المنطلق من عالمية المعرفة الذي غرسه وأورثه الاستلاب الثقافي لأمتنا الإسلامية.

ولكن هذه الأصوات، سواءً منها المهرجة أو المقلدة، ما لبثت أن بدأت تهدأ وتخفت وتضعف، بخاصة بعد أن انتشرت قضية إسلامية المعرفة من خلال برامج المعهد العالمي للفكر الإسلامي، والجامعات والمعاهد التي تتعاون معه أو تشاطره الاهتمام بهذه المسألة.

ثم ازدادت أصوات المعارضين لإسلامية المعرفة خفتاً وضعفاً حين بدأ بعض الغربيين أنفسهم، يشيدون بأهمية القيم في ضبط مسيرة العلوم، وينادون بإعادة الربط والاتصال بينها، ويوضحون مدى الخسارة الفادحة التي حلت بالبشرية نتيجة الفصام بين الدين والعلم، أو بين العلم والحكمة[1].

فلئن كان الفصل بين العلم والإيمان، أو المعرفة والقيم، يجد مبرره لدى الغربيين فيما أحدثته الكنيسة ورجالها في القرون الماضية من طغيان وتجبر في صفوف الباحثين، وما مارسته من حجر قاتل على الفكر، ومحاربة صارمة للعلم، فإن هذا الفصل ظل منبوذاً غير مستساغ في الفكر الإسلامي طوال جميع مراحل تطوره التاريخي.

لكن تعاقب المغرمين بالسلطة وأعداء الشورى على زمام الأمر في بلدان العالم الإسلامي، وحصول الانفصام بينهم وبين العلماء، وانـزواء هؤلاء إلى درجة فصل الفكر عن العمل في مؤسسات المجتمع السياسية والعلمية والفكرية[2]، قد حال دون بلورة العلوم داخل بلدان العالم الإسلامي بشكل

---

(1) من ذلك مثلاً: «بيان فانكوفر» الصادر عن ندوة «العلم والثقافة في القرن الحادي والعشرين: برنامج من أجل البقاء» المنظمة من طرف «اليونسكو» في فانكوفر بكندا ما بين 10 و15 سبتمبر 1989، والذي نص فيه الخبراء الدوليون الموقعون على ضرورة ربط العلم بالقيم، والاعتراف بحقيقة دور الدين في بلورة حياة الإنسان إذا كنا نريد بقاء لهذا الإنسان في القرن المقبل.

(2) يمكن مراجعة كتاب المعهد العالمي للفكر الإسلامي «**إسلامية المعرفة: المبادئ وخطة العمل**»، سلسلة إسلامية المعرفة (1) الطبعة الثانية، 1406/ 1986، ص 66-70.

سليم، وأصاب الخطاب الإسلامي بانكماش وضبابية ما زال يعاني منهما إلى اليوم.

أما في الغرب، فقد أدى طغيان الكنيسة ورجالها إلى ردود فعل أسقطت الدين من حسابها، وبدأت تنظر إلى المعرفة على أنها حقائق ومسلمات مجردة، مثل الداروينية والماركسية والوجودية وغيرها. وصار الحديث عن الإنسان فكراً وثقافة وتربية وسلوكاً وتاريخاً، ينطلق من النظر إلى الإنسان على أنه نهاية خط التطور الحيواني، والنزوع المادي، والإشباع الغريزي.

2- هيمنة الخطاب الغربي

لقد تكونت في بلدان الغرب -من جراء الفصل بين العلم والإيمان- نظريات للعلوم الإنسانية والاجتماعية والفنون والآداب، مبنية على رؤية ووجهات نظر مادية للإنسان ونفسيته، ومحاكمة طبيعته وتصرفاته وميوله، وتقويمها من خلال مقاييس المادة وحدها.

وزاد الخطب حين أحكم الغرب قبضته على مقاليد العالم في أواخر القرن الماضي، إذ عمل على تهميش الثقافات القائمة ببلدان العالم التي استعمرها وأبادها، معتبراً ثقافته المحور والمقياس لكل فكر ومعرفة، وبالتالي أساساً لكل خطاب. فأمام هشاشة تلك الثقافات التي بعدت عن ثوابتها الأصيلة، ومع الغلبة التي حققتها الثقافة الغازية، بدأ الاجتياح والغزو الثقافي، وبدأت الحصون الفكرية والثقافية للأمم الأخرى تتهاوى أمامه.

وعلى الرغم من أن الأمة الإسلامية لم تستسلم بمجموعها للثقافة الغازية، إذ التجأت الفئات المقاومة منها إلى ما بقي محفوظاً من تاريخها الثقافي والحضاري، تحتمي به من الذوبان، إلا أن ذلك اللجوء لم يكن في مستوى التمكين من المقاومة الفاعلة، وإن حال دون الذوبان الشامل. وكانت النتيجة انعدام تمكن الأمة من عملية النهوض والبناء الحضاري، نظراً لهشاشة الفهم للموروث المحتمى به من جهة، والعجز عن التعامل مع الثقافة الوافدة، أو صد خطابها الحامل للتحدي من جهة أخرى.

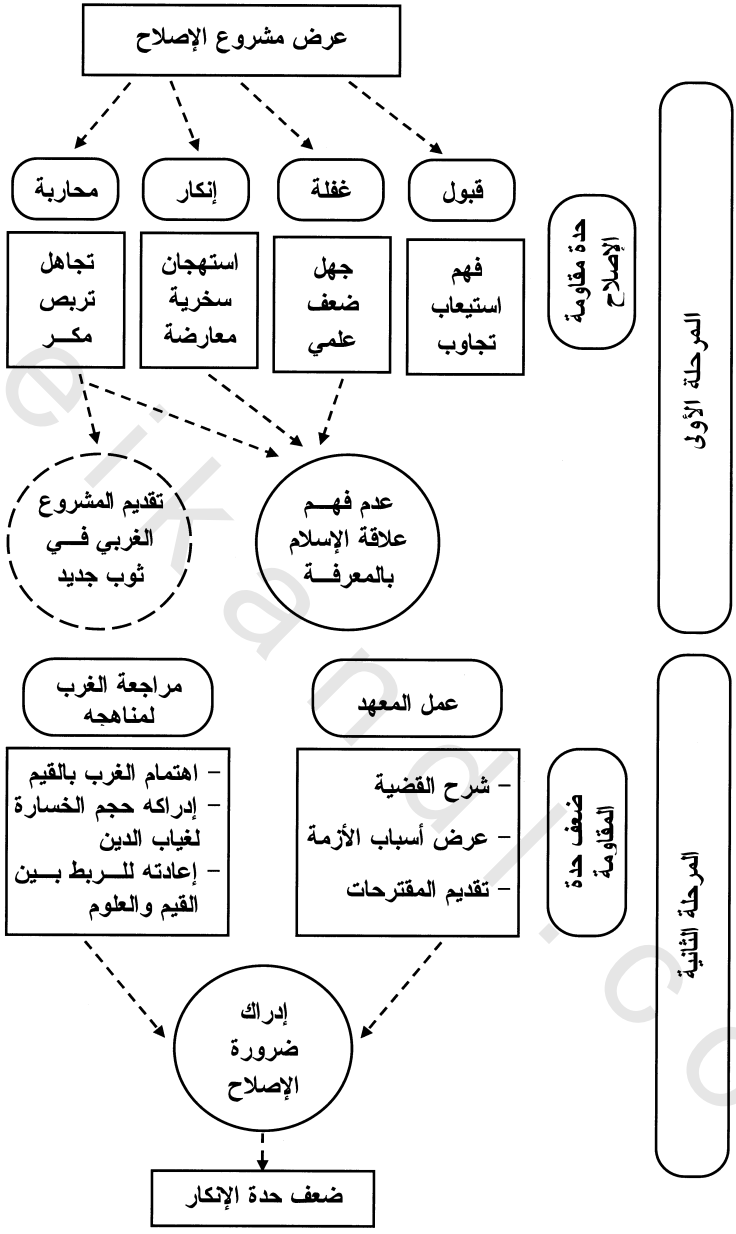
عرض مشروع الإصلاح
قبول
غفلة
إنكار
محاربة
فهم
استيعاب
تجاوب
جهل
ضعف
علمي
استهجان
سخرية
معارضة
تجاهل
تربص
مكـر
حدة مقاومة الإصلاح
المرحلة الأولى
عدم فهـم علاقة الإسلام بالمعرفـة
تقديم المشروع الغربي فـي ثوب جديد
عمل المعهد
مراجعة الغرب لمناهجه
- شرح القضية
- عرض أسباب الأزمة
- تقديم المقترحات
- اهتمام الغرب بالقيم
- إدراكه حجم الخسارة لغياب الدين
- إعادته للـربط بـين القيم والعلوم
ضعف حدة المقاومة
المرحلة الثانية
إدراك ضرورة الإصلاح
ضعف حدة الإنكار

شكل (3-1)

وطبعاً لم يحل الأمر دون سقوط فئات من الأمة في الاستلاب الثقافي، والشغف بقوة الغالب، وتشرب ثقافته والانسياق وراء خطابه الفكري والمعرفي، بمحاولة تقليده في كل شيء، والانبهار به إلى درجة المسخ في شكل أبواق تردد محتواه ومضمونه وتروجه، ظناً من تلك الفئات أن ذلك قد يمكن الأمة من اجتياز حاجز التخلف، واللحاق بركب الحضارة، ويعوض عن مركب النقص. إلا أن أصحاب هذا التوجه لم يجنوا إلا الحصاد المر، المتمثل في فقدان الهوية واضطراب الرؤية وتفكك الشخصية الإسلامية.

3- ضرورة تجديد خطاب الفكر الإسلامي المعاصر

فلا شك في أن الشخصية المسلمة اليوم قد افتقدت الكثير من منهجيتها وصوابها، يشهد على ذلك انحسار الشهود الحضاري، وتوقفها عن أداء رسالتها في الشهادة على الناس، والقيادة لهم، فأصبح موقعها خارج السياق التاريخي، والواقع المشهود، والمستقبل المنشود.

والغياب الحضاري أو الأزمة الحضارية التي حالت دون توسيع رقعة تأثير الخطاب الإسلامي وأفقدته واقعيته، ليست بسبب فقر في القيم التي أكملها الله وتعهد بحفظها على مر الأزمنة، وإنما السبب في العجز عن حسن التعامل مع منظومة القيم الإسلامية، وتسخيرها للإنتاج الفكري الرابط بينها وبين أهدافها، والمنـزل لها على الواقع الإنساني عبر خطاب سلس ومتفتح على الكون، يدوي صداه في عالم الأفكار، مستصحباً الرؤية القرآنية، ومالكاً لقدرات العطاء المتجدد المجرد عن حدود الزمان والمكان لرسم الحياة البشرية، وتقديم المرجع والزاد لحل مشاكل الإنسانية.

وحتى يواصل خطاب الفكر الإسلامي المعاصر صموده المتنامي، ويواجه بصلابة طغيان الفكر الغربي الغازي والمستورد، نرى أن عليه أن يجعل من قضية إصلاح مناهج الفكر وإسلامية المعرفة قضيته الرئيسية والأساسية، قصده من ذلك تحقيق الأصالة الإسلامية المعاصرة، وتمكين الأمة من الشهود الحضاري، من خلال استلهام الأصالة وهضم الحداثة، وتقديم ذلك في مشروع معاصر موحد كامل متحرر، يقوم على فكر سليم دون أزمات، ومنهج

واضح دون خطأ أو انحرافات، وثقافة بانية دون آفات، وحضارة شاهدة دون قصور أو معوقات.

فإصلاح مناهج الفكر ضروري لإزالة الخلط بين المبادئ المحفوظة والبرامج والأوعية الفكرية المطلوبة لحركة الحياة، وبين القيم الثابتة والأفكار الغائبة. فالانحسار الذي نعاني منه -هو كما بينا- ناتج عن أزمة فكر بالأساس، لأن العطاء الفكري للحضارة الإسلامية وإسلامية المعارف قد توقف عند حدود العقول السابقة، وكأن الله خلق لنا عقولاً لنعطلها عن الإنتاج، ونمنعها من الابتكار، ونحول دونها ودون الإبداع الذي يشترطه الصمود في وجه تيارات الهجوم الحضاري، ويمليه التدافع الذي لولاه لفسدت السماوات والأرض، ثم نذعن للقول بأن العقول السالفة هي نهاية المطاف، وغاية البعد الزماني والمكاني.

وإصلاح مناهج الفكر يقتضي الإقدام الفوري على مراجعة الذات، وتحديد مواطن الخلل والإصابة، واكتشاف الأزمة، وإدراك آليات التوليد فيها، واستلهام القيم في صناعة فكرية معاصرة قادرة على استرداد الشهود الحضاري، ووضع موازين القسط، ومعايير الحق اللازمة لتحقيق الشهادة. كما أن إسلامية المعرفة ضرورية من جهتها لاستئناف العطاء العلمي، وتفجير الطاقات الإنسانية نحو البناء الفكري والمعرفي المولد للحضارة، وإعادة تشكيل العقل المسلم ثقافة وفكراً وسلوكاً، وتصويب مسار المعرفة لتنضبط بمنطلقاتها وتحقق أهدافها الشمولية والمتوازنة.

ولا يمكن أن نتصور أن يكون الإصلاح والتصويب في جانب بمعزل عن بقية الجوانب الأخرى المصاحبة، من هنا جاء اختيارنا المرابطة في هذا الموقع الفكري أو الثغر الثقافي، والتوجه صوب القضية الأهم والأصعب: إصلاح المناهج العقلية، وبناء الشوكة الفكرية، وتنقية الموارد الثقافية في ضوء الكتاب والسنة، لاعتقادنا أن ذلك يشكل الرحم والمحضن الذي تتشكل في داخله الأجنة الحضارية، القادرة على استئناف الحياة الإسلامية، وبناء الحضارة الإنسانية. والمرابطة في هذا الثغر واختيار هذا الموقع، ليس بديلاً عن أي من حركات الإصلاح والنهوض والبعث الحضاري، وإنما هو شرط

مستمر لتصويب مسارنا جميعاً، وتجديد فكرنا، والسمو بعقيدتنا، والقيام بواجبات ديننا.

شكل (3-2)

obeikandl.com